البعد الجمالي للّغة في الحوار القرآني
"التقديم والتأخير نموذجا"

أ. جميلة بكوش
جامعة تيارت

ملخص: إذا كانت الغاية من الحجاج تحقيق استمالة المتلقي لما يعرض عليه من رأي والتّأثير في سلوكه، وترجمة ذلك إلى أعمال تسفر عن اقتناعه، وإذا كانت الغاية من الحوار لا تقتصر على قول يعطي معلومات للمتلقي، بل تتعداه إلى كونه فعلا له تأثيره على الآخرين، فإنّ الإقناع هدف "يتحقق عبر توسّل أدوات وأساليب بلاغية (أي لغوية، تركيبية، بيانية...)"[1]. وإذا كان الشّغل الشاغل لكل من النحاة واللغويين مثالية اللغة في مستوى استخدامها العادي والحرص عليها، فإنّ النقاد والبلاغيين–وهم المعنيون باللغة الفنية– قد حرصوا على رعاية صفةٍ مخالفةٍ في الاستخدام الفني للغة. هذه الصفة هي المغايرة أو الانحراف على نحو معيّن عن القواعد والمعايير المثالية التي تحكم اللغة العادية، مما يحقق أدبية وجمالية تثير المتلقي وتشدُّ مشاعره، لتجعلنا نتساءل عن تظافر جهود النحو والبلاغة في تحقيق هذه الجمالية، ونقول: كيف حقّق التفاعل النحوي البلاغي الأدبية في الحوار القرآني؟

إنّ الحديث عن القيمة الجمالية في الحوار القرآني مرتبط بالنظام اللغوي كونه بنية تركيبية، تدعو العقل للتأمّل، ولإدراك ما فيه. فلغة النص القرآني عامة تتعامل مع اللغة العربية وبها، تعاملا بلاغيا فتنقلها من وظيفتها الدلالية الإبلاغية وتحوّلها إلى علامات تحيل إلى معان ودلالات معقولة، ودائما ما تلجأ لغة النص في سياق هذا التحويل إلى حفز المتلقي على 'التعقّل' و'التذكّر' و'التفكّر' و'التّدبّر'"[2]

قال تعالى: ﴿**قال يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي...**﴾[3] وقوله جل جلاله: ﴿**...انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ...**﴾[4] وإذا كانت أساسيات القراءة الجمالية تتمثل في اللغة والإيقاع فإنّ "الوعي بالظاهرة الجمالية القرآنية لغة وأسلوبا وإيقاعا عمّق الفكرة القائلة بأنّ النص القرآني كائن لغوي خاص له جمالياته المتفرّدة التي تؤكد أنه من لدن صانع خبير وحكيم"[5]. فلغة آيات الحوار القرآني لم تقتصر على العناصر التي تحقق الإفهام أو التوصيل أو التعبير فحسب، بل تعدتها إلى مستوى لغوي آخر، أسمى تجاوز هذه العناصر إلى تحقيق مواصفات جمالية أخرى كالقبول والحسن والإثارة[6] مجسدة في اللغة البلاغية أو الأدبية، لأنّ الخطاب البلاغي باللغة "هو استخدام اللغة استخداما بلاغيا بحيث تؤدي دلالات ومعاني تزيد النّص قوّة وجمالا، وتعبّر عن المعنى خير تعبير"[7]، ومن ثم يأتي تفرّد لغة القرآن وبلاغتها التي تصل بالقارئ إلى فهم المقصود والتفاعل معه، إذا ما انتظمت في أساليب تجعلها تؤثر في النفس، ذلك "أنّ القرآن مكوّن من ألفاظ مختارة دقيقة موحية قد اتسقت في جملها، واستقرت في مكانها، وكوّنت مع زميلاتها آيات مؤثرة بقوة نسجها وجمال موسيقاها، وقد قُدّم فيها ما قُدّم، وأُخّر ما أُخّر، وذكر ما ذكر وحذف ما حذف، واستعملت صيغة دون أخرى، لاعتبارات نفسية دقيقة"[8] ومن ثم تتحدد رسالة الحوار القرآني اللغوية في التأثير في عواطف المتلقي وخيالاته، وإقناعه كأن يأخذ هذا الحوار بعدا مأساويا –مثلا– لأهل النار في موقفهم المصيري المعروض في مشاهد القيامة، أو البُعد الاحتفالي لأهل الجنة في نفس المشاهد المعروضة ليوم القيامة، قال تعالى: ﴿**وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ، وَقَالَ الشَّيْطَانُ...**﴾[9] يتوزّع المشهد الحواري بين الضعفاء (فقال الضعفاء) والمستكبرين (قالوا)، بحضور الشيطان (قال الشيطان) والمشهد "حين يقتصر على هذا العدد من الحركات، يقدّم بين يديه مبدأ الاقتصاد في عدد العناصر التي يعرضها، إذ ليس

الغرض التوسّع في تخاصم أهل النار، بل الغرض قائم في عرض عيّنة من أحاديثهم التي نقل الكثير منها في مختلف السور وخصوصية المشهد تتمثل في وقوف الشيطان إزاءهم يسمع تشاجرهم، فيعقّب عليهم بما يفتح في نفوسهم أبواب الحسرة والخيبة، في مسار قد أيقنت النّفوس فيه بالخسارة والبوار"[10]. فلغة الحوار القرآني اتّكأت على أسلوب الحجاج إذ "القول الحجاجي كلام العقل الذي يدرك نفسه في كل أبعاده، دون أن يحدّه اتجاه مخصوص 'لأنّ اللّغة هي العقل المتكلم'"[11]. فالحوار القرآني –من هنا– قائم على العلاقة الخطابية باستغلال ما في اللغة من قوة وثراء: متجاوزة بذلك اللغة إلى ما تحمله تلك اللغة من أساليب بلاغية "تتوفّر على خاصية التحوّل لأداء أغراض تواصلية ولإنجاز مقاصد حجاجية ولإفادة أبعاد تداولية"[12]، والتصوّر الجديد للبلاغة مفاده أنّ المجال المفضل للحجاج هو البلاغة حيث تلعب فيه المساءلة المتصلة ببنية الأقوال البلاغية دورا تحليليا داخل الحجاج حيث تبرز أهدافه وغاياته الإقناعية[13]، هذا التصوّر المرتبط بنظرية المساءلة يجد له موقعا مهما في التراث البلاغي العربي*. وخلال هذه العملية التفاعلية تتحدد الاختلافات باعتبارها افتراضات متبادلة داخل الحوار، مجسّدة في اللغة: تعابيرها وصوّرها وتشبيهاتها واستعاراتها، وكناياتها، وبديعها. ومن هنا فالمتلقي للخطاب القرآني، والحواري منه خاصة، يدرك أنّه "وجود لغوي رُكّب كل ما فيه على أن يبقى خالدا مع الإنسانية؛ معجزا أهل اللغة جميعا، فتُذكر به اللغة ولا يُذكر هو بها وبذلك يحفظها، إذ يكون في إعجازه مشغلة العقل البياني العربي في كل الأزمنة"[14]. إنّ الحوار القرآني لا يتجلى إلا في لغة يجعلها متنفّسه الجمالي "تصوّر الفكرة حتى تكون قريبة المنال، قوية التأثير، بالغة الدلالة"[15]. ومن هنا فالمتلقي المتأمل لنصوص هذا الحوار وللغته وأساليبها "يفترض به أن يدخل إلى صميم النظام اللغوي حروفا وكلمات، وتراكيب، وأن يتعرّف إلى العام والخاص، والمقيّد والمطلق، والمجمل والمفصّل، والتعريف والتنكير، والتقديم والتأخير والابتداء والعطف.. والحذف والذكر، والخبر والإنشاء، وأن يميّز هذا المتلقي كل نصّ

بنظامه الخاص به وصيغه في التأليف والتصوير"[16]، وبهذه الجماليات اللغوية في نصوص الحوار القرآني وأساليبها يتمكن من النفس، فتنهض المشاعر من مكامنها والعقول من ركودها، فإنما يعرف "فضل القرآن من كثر نظره، واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب، وما خصّ الله به لغتها دون جميع اللغات"[17].

إن غاية المحاور الأول من كل خطاب يرسله تحقق الإقناع، ولا يكون ذلك إلا باسترفاد أساليب بلاغية ووسائل خطابية لينشأ عن كل ذلك "نوع من التأثير وضرب من التغيير تصير بمقتضاه كيانات الجمهور المتقبّل، طوع ما تحدثه تلك الأساليب ورهن ما تتركه تلك الطرائق، من أمارات يترجمها الإقناع مآلا والطاعة استجابة"[18]، هذه اللغة الفنية الأدبية الكامنة في أساليب الحوار القرآني بمختلف أشكاله، وتباين مخاطبيه، تجرّ المخاطب إلى الاقتناع "وقد تزدوج أساليب 'الإقناع' بأساليب 'الإمتاع' فتكون إذ ذاك، أقدر على التأثير في اعتقاد المخاطب، وتوجيه سلوكه، لما يهبها هذا الإمتاع من قوة في استحضار الأشياء، ونفوذ في إشهادها للمخاطب كأنه يراها رأي العين"[19] وهذا ما نراه في الحوار القرآني كالذي يعرض لمشهد مروّع من مشاهد القيامة، قال تعالى: ﴿**قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ، قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ، مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ، يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ**﴾[20] وهنا تأتي الصياغة اللغوية مرتبطة بالسياقات التي ترد فيها، بأهمية بالغة في الإبلاغ.

فطبيعة التأليف إيجازا أو إطنابا أو تجريدا أو تأكيدا تتأثر بحسب المقام الذي ترد فيه[(21)] ومستويات التعبير تتنوّع بتنوّع الأحوال والمقامات، إذ أنّ "مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التشكر يباين مقام الشكاية، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل، وكذا مقام الكلام ابتداء يغاير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار..."[22]، وحتى تؤدي اللغة دورها البلاغي، فهي تختار الألفاظ حسب المقام وحسب الموضوع الذي يتمّ الحديث عنه وتقوم بترتيب هذه الألفاظ ترتيبا بلاغيا يضع كلّ لفظة في مكانها المناسب. ولا تقف وظيفة اللفظ في

القرآن الكريم عند حد التعبير عن المعنى المراد فحسب بل تتعداه إلى ما يوحيه من صور وما يتركه من آثار في النفس الإنسانية[23]، ومن هنا تأنّقت سور وآيات الحوار القرآني في اختيار الألفاظ الدالة والمصوّرة للمعنى أكمل تصوير والمحركة للمشاعر، كما امتازت عباراته وجمله بجودة النّظم، وحسن التركيب بحيث لا تجد تعقيدا ولا تنافرا بين الكلمات. وكأنّ كل كلمة وضعت في المكان الذي خصص لها، ولو تم حذفها أو تقديمها أو تأخيرها لاختل النظام وتزعزع البناء[24]، لتعرض بتناسقها مشهدا كونيا شاخصا متكامل الأجزاء متناسق الظلال. إن المتأمل في سور الحوار في القرآن الكريم –كما في كلّ سوره– يرى جليا أن لكل سورة فيه إيقاعا موسيقيا متميزا له وقعه على الأسماع ينجم عن تأليف العبارة بتخيّر الألفاظ ونظمها في نسق خاص "فالألفاظ تجري من السمع مجرى الأشخاص من البصر فالألفاظ الجزلة تُتخيّل في السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار، والألفاظ الرقيقة تُتخيل كأشخاص ذوي دماثة ولين أخلاق، ولطافة مزاج"[25]، لاشك وأنت تقرأ سور الحوار القرآني تطالعك هذه الصورة القوية السحرية التي تكمن في ألفاظه وعباراته، إنها اللغة، ولا غرو، فهي "الظاهرة الأولى في كل عمل فني يستخدم الكلمة أداة للتعبير، هي أول شيء يصادفنا، وهي النافذة التي من خلالها نطل، ومن خلالها نتنسم، هي المفتاح الذهبي الصغير الذي يفتح كل الأبواب، والجناح الناعم الذي ينقلها إلى شتى الآفاق وقد عرف الإنسان العالم، أو حاول أن يعرفه لأوّل مرة يوم عرف اللغة"[26] والعرب قد وجدوا في الخطاب القرآني وأسلوبه "ألفاظهم بأعيانها متساوقة فيما ألفوه من طرق الخطاب وألوان المنطق غير أنهم ورد عليهم من طرق نظمه، ووجوه تركيبه، ونسق حروفه في كلماتها، وكلماته في جملها ونسق هذه الجمل في جملته ما أذهلهم عن أنفسهم من هيبة رائعة وروعة مخوفة وخوف تقشعرّ منه الجلود، حتى أحسوا بضعف الفطرة القوية، وتخلّف الملكة المستحكمة، ورأى بلغاؤهم أنه جنس من الكلام غير ما هم فيه، وأن هذا التركيب هو روح الفطرة اللغوية فيهم، وأنه لا سبيل إلى صرفه عن نفس أحد العرب أو

اعتراض مساغه إلى هذه النفس، إذ هو وجه الكمال اللغوي الذي عرف أرواحهم واطّلع على قلوبهم"[27]. إن جمالية اللغة وبلاغتها تتأتى من انتقاء هذه الألفاظ والتعبير عن المعاني، فالبلاغة "إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ"[28]، فضلا عن موسيقى هذه اللغة التي تزيد النص قوة وجمالا وفناّ مما يسهم في إقبال المتلقي على الاستزادة من تنسّم أريجه وتذوّق حلاوته؛ لأنّ القرآن الكريم وما في آياته من حوار وحجاج نوّع أساليبه وانتقى ألفاظه، وسبك جمله ولوّن وسائله، ليسيطر على النّفوس، ويأسر العقول والقلوب حتىّ وإن تفاضلت وتباينت لأنّ "اللغة تعدّ بحق بمثابة الحامل المادي للرسالة السماوية، إذ بتحقيقها تتحقق الرسالة وبانعدامها تنعدم وتزول"[29] ليحقّق الغاية من الإقناع والتأثير بجمالياته اللغوية والتركيبية والأسلوبية. فالبلاغة تقف "عند الصورة الفعلية للكلام دون أن ترفض ما فيه من نقص أو انحراف بل تحاول استغلاله من زاوية فنية بينما النحو يحاول أن يقدم صورة مثالية كاملة للغة، فإذا لم تسعفه العبارة الفعلية الظاهرة في الكلام، تطوّع بتقدير هذه الصورة"[30].

التقديم والتأخير: وهو من الظواهر اللغوية التركيبية في الجملة العربية وهو إن كان ظاهرة مشتركة بين اللغات فإنه في اللغة العربية يحوز "مكانة خاصة واستغلالا أوسع وطاقة على التعبير أشد تنوّعا وتفنّنا"[31]، وإذا كان الكلام الحسن هو الكلام البليغ، فإنّ القول البليغ في بنية الإسناد يتحقق عبر عدد من الوسائل منها باب مهم هو التقديم والتأخير[32]، إذ يعدّ دليلا على تمكّن العرب ومقدرتهم على التصرف في فنون الكلام "لما فيه من تأثير على استقبال النّص، ومصدر الجمال والحسن في الكلام"[33]. ومما لاشك فيه أن تميّز اللغة العربية بحركات الإعراب هو الذي أتاح لها مثل هذه المرونة في التقديم والتأخير، وإن كان قد حظي بعناية فائقة لدى النحاة بتحليل عناصره ورصد مواضعه، فهو يعتبر "أحد أساليب البلاغة فإنهم أتوا به دلالة على تمكّنهم في الفصاحة، وملكتهم في الكلام وانقياده لهم، وله في القلوب أحسن موقع، وأعذب مذاق"[34]. وقد درس علماء البلاغة بعض أبواب النحو

دراسة تطبيقية في ضوء التقديم والتأخير إذ "مجرّد المخالفة يُنبّئ عن غرض ما وإنّ هذا الغرض قد يكون توجيه التفات السامع إلى كلمة من الكلمات عن طريق إبراز هذه الكلمة إبرازا يتحقق عنه تأثير ما"[35]، لأنّ التوظيف البلاغي للتقديم والتأخير يفيد خفة في التركيب وإبرازا للمعنى. وإذا تحدث النُّحاة عما يعرف بالرتبة المحفوظة، وهي احتفاظ الأبواب النحوية بمواقعها في الترتيب العام للجملة بالنسبة لأبواب أخرى[36]، فإنّ "دراسة التقديم والتأخير في البلاغة دراسة لأسلوب التركيب لا للتركيب نفسه أي أنّها دراسة تتم في نطاقين أحدهما مجال حرية الرتبة حرية مطلقة والآخر مجال الرتبة غير المحفوظة وإذا فلا يتناول التقديم والتأخير البلاغي ما يسمى في النّحو باسم الرتبة المحفوظة"[37]، فاللغة العربية من هذا القبيل تميل إلى حرية الترتيب، وتحطيم تلك الرتبة أو تحديها، ليكون ذلك سببا في جمالية تتجاوز ما يقرر النّحو نظرياً. والترتيب الذي يعدّ "عنصرا تحويليا هو ذلك الذي يتمّ فيه إجراء تغيير يقع على ترتيب عناصر الجملة الفعلية بالتقديم والتأخير، من نحو تقديم الفاعل على الفعل أو المفعول به على الفعل والفاعل، ومن نحو تقديم الخبر على المبتدأ في تقديم الجملة الاسمية، أو تقديم الفُضلات على أحد ركني الجملة الأساسيين أو عليهما معا بغية إحداث تغيير في المعنى[38]. ومن صور التقديم تلك، وبعض نماذجه في الحوار القرآني، ما جاء في الحوار الرباني التلقيني للرسول عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿**قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ، وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ، بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ**﴾[39]، ففي قوله عز وجل: (بل الله فاعبد)، جملة فعلية قدّم فيها المفعول به "الله" على الفعل والفاعل، أي قصر عبادته على الله وحده "واختصاص العبادة به دون غيره، ولو قال: "بل أعبد" لجاز إيقاع الفعل على أي مفعول شاء"[40]، إضافة إلى أنه قدّم من أجل المشاكلة لرؤوس الآي "فيكون في التقديم مراعاة لجانب اللفظ والمعنى جميعا، فالاختصاص أمر معنوي، والتشاكل أمر لفظي"[41]، ومنه قوله تعالى في حواره مع موسى:

﴿**فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى، قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى**﴾[42]. وتقدير الكلام (**فَأَوْجَسَ مُوسَى فِي نَفْسِهِ خِيفَةً**)، وإنّما قدم المفعول به على الفاعل وفصل بين الفعل والفاعل بالمفعول وبحرف الجر قصدا لتحسين النظم "ومراعاة لاعتبارات موسيقية الأمر الذي دعّم موقف البلاغيين في تصديهم لفكرة الرّتب المحفوظة وتحطيمها وإقامة مبحث التقديم والتأخير فوق أنقاضها"[43]، مما حقق جمالية تأسر الذوق، وتشد الانتباهوتجلب السمع، وتحقق الحسن، "فتجد سبب أن راقك، ولطف عندك، أن قدم فيه شيء وحوّل اللفظ من مكانه إلى مكان"[44]، إضافة إلى حكمة أخرى من التأخير "وهي أنّ النّفس تتشوّق لفاعل (**أَوْجَسَ**)، فإذا جاء بعد أن أُخّر وقع بموقع"[(45)]. ومن صور تقديم الخبر على المبتدأ في الجملة الاسمية ما جاء في حوار إبراهيم مع أبيه، في قوله تعالى: ﴿**قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ...**﴾[46]، فإنما قدّم خبر المبتدأ عليه في قوله: (أراغب أنت) ولم يقل: (أأنت راغب) ليدل بذلك على إفراط تعجبه في الميل عنها، ومبالغة في الاهتمام بأمرها وواضعا في نفسه أنّ مثل آلهته لا تنبغي الرغبة عنها ولا يصحّ الإعراض عن عبادتها[47]. ومن الدلالات التي يحملها التقديم والتأخير الذي يجيء مع الاستفهام والهمزة، حمل المخاطب على الإقرار، ففي حوار إبراهيم مع النمرود، قال تعالى حكاية عن النمرود: ﴿**أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ**﴾[48] غرضه التقرير بأنه الفاعل، فهم يريدون أن يقرّ لهم بأن كسر الأصنام قد كان منه، ولم يقولوا ذلك ليقرّ لهم بكسر الأصنام، فكان جوابه عليه السلام: (بل فعله كبيرهم هذا، ولو كان التقرير بالفعل (كسر الأصنام)) لكان الجواب: فعلت أو لم أفعل[49]، ففي تقديم الفاعل (أنت) وتأخير الفعل (فعلت) دلالة على أنّ الفعل قد حدث وكان الشك والتّردد في الفاعل: أهو إبراهيم أم غيره[50]. فالتقديم والتأخير إنما جاءا هنا لتحرير المعنى وضبط الدلالة، فالهمزة تقرير بفعل قد كان، وإنكار رافض لهدا الفعل وتوبيخ وتقريع لفاعله عليه، والأمر نفسه وجدناه في حوار الله تعالى مع عيسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ**

لِلنَّاسِ...﴾[51]، فإذا قلت: أأنت فعلت؟ فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل من هو؟ وكان التردد فيه[52]. أما إذا قدّم الفعل كان الشك في الفعل نفسه، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده، وفي ذلك إنكار أن يكون الفعل قد كان من أصله، ففي حوارات القرآن التلقينية قال تعالى في ردّه على المشركين: ﴿**أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا**﴾[53] ففي تقديم الفعل تكذيب لهم في قولهم، لأن الله "أراد أن يُبطل ادّعاء الكفار وقوع شيء لم يقع حقيقة بجعلهم الملائكة بنات الله وبزعمهم أنّ الله خصّ نفسه بالبنات، وهذا ما يفيد الدلالة الإنكارية التكذيبية"[54]، هذا مع الفعل الماضي، أما إذا قُدّم الفاعل على الفعل المضارع في حيّز الهمزة وُجّه إليه الإنكار، وأبيت أن تكون بموضع أن يجيء منه الفعل، وممن يجيء منه[(55)]، ومنه حواره تعالى مع الرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿**أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ...﴾**[56]، فإسماع الصم ليس مما يدّعيه أحد فيكون ذلك للإنكار، وإنما المعنى فيه للتمثيل والتشبيه[57]، لأنّ إسماع الصمّ وهداية العمي أمر شبيه بالمحال لكن نُزّل حال الرسول عليه الصلاة والسلام، في سعيه المتواصل واستفراغ قصارى جهده لهداية الكفار وإدخال الإيمان إلى نفوسهم منزلة من يظنّ أنه قادر على إسماع الصمّ وهداية العمي، إضافة إلى ذلك، فقد قُدّم الفاعل (أنت) لتخصيص الرسول الكريم بنفي مثل هذه الدعوى[58]. وفي ذلك تنبيه له عليه الصلاة والسلام "وهو أن يقال للنبي صلى الله عليه وسلم: أأنت خصوصا قد أوتيت أن تسمع الصم؟ وأن يجعل في ظنه أنه يستطيع إسماعهم بمثابة من يظن أنه قد أوتي قدرة على إسماع الصم"[59]. تتحقق الأدبية في هذا الباب بخرق الرّتب المحفوظة وتخطّيها والانحراف عنها: "فالأسلوب القرآني المعجز الذي وضع لكل لفظة في سياقها معنى دقيقا تضع المتلقي أمام النص لتحقيق نتيجتين مهمّتين، فهم المعنى والتأثير الجمالي في هذا المتلقي"[60]، بإحداث هزّة في وعيه، تجعله يعمل الفكر ويوقظ الوجدان، نتيجة تغيير يراه قد حدث في مراتب الكلمات، ولو قال غير ذلك: "لذهبت تلك الطلاوة، ولزالت تلك العذوبة"[61]. ولاستنباط القيمة الجمالية

والطاقة البيانية المؤثرة في هيكلة البناء الخارجي، نقف أيضا على تقديم الجار والمجرور، منه ما جاء في حواره عز شأنه مع زكريا عليه السلام: ﴿**قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ** ...﴾[62] ففي قوله (**هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ**) تقديم الجار والمجرور (عليّ) أفاد الاختصاص ودلّ على أنّ الأمر هيّن على الله وحده، وأنّ غيره عاجز عنه وقاصر دونه، وقد ناسب هذا المعنى سياق الآية لأنّ الله قد بشّر زكريا بغلام رغم كبره، وعقر زوجته، وكان ذلك على الله هيّنا[63]. ومن تقديم الظّرف، ما جاء حكاية على لسان امرأة فرعون، قوله تعالى: ﴿...**قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ...**﴾[64] فتقديم الظّرف (عندك) يدلّ على اختصاص البيت بالله لا بغيره فامرأة فرعون لا يهمّها البيت بقدر ما يهمّها أن يكون عند الله وحده دون غيره، ففائدته "إسناد الكلام الواقع بعده إلى صاحب الظرف دون غيره"[65]، لأنّ المقصود به الإثبات، وبالتالي فإنّ تقديمه أولى من تأخيره[66]، فالمتلقي يدرك أنّ الخاطر ملتفت إلى البيت عند الله لا إلى البيت مطلقا، والهمّة معقودة به، فهي تخصّ البيت ما كان عند الله لا عند غيره. ما سقناه من شواهد، مثله كثير في القرآن الكريم، داخل مساحة الحوار وخارجها، حاولنا فيه الوقوف على الوظيفة الجمالية التي يؤدّيها التقديم والتأخير في الحوار القرآني انطلاقا من وجهه البلاغي، فأنت لا تقرأ نموذجا منه إلا ويستقرّ في ذهنك لأنه "دخل على القلب دخول المأنوس به، وقَبِله قبول المتهيئ له المطمئن إليه، وذلك لا محالة أشدّ لثبوته وأنفى للشّبهة وأمنع للشك وأدخل في التحقيق"[67] مما يكشف ما وسم بلاغة القرآن الكريم من عظيم الأسرار وإعجازه من كثير الدلائل، تبدو فيها "عملية تحريك العناصر المؤسسة لكيانات التراكيب، غاية بالغة الدقة لاتّصالها بالدلالة العميقة التي يتوجب إيصالها إلى ذهن المتلقي... فالمتلقي في فلسفة التقديم والتأخير عنصر جوهري يتوقف عليه تكامل المنتج الإبداعي ولابدّ من إثارته إيجابا وتشويقا، وتعديلا في أواصره الفكرية وإثرائه بالتنوّعات المعرفية"[68]. التقديم والتأخير بعدوله عن الرّتب التي أقرّها النحو، يحيل الكلام إلى سحر مؤثر جميل معجز، لما في دلالة الترتيب فيه من

أبعاد عميقة ترقى بالمتلقي من مستوى الإفادة إلى مستوى الإقناع والإمتاع، وتخرج باللغة من مسارها المثالي إلى مسار مبدع نجم عن الاختيار والترتيب، جعل الخطاب القرآني خطابا ثخنا لا يُملّك العنان إلاّ لمن مهره السُّهاد.

الهوامش:

---

1 – صابر حباشة، محاولات في تحليل الخطاب، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط01، 1430هـ/2009م، ص: 117.

2 – ينظر: نصر حامد أبوزيد، النص والسلطة والحقيقة، إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة المركز الثقافي العربي، بيروت – لبنان، ط4، 2000م، ص: 218.

3 – سورة هود، الآية: 28. وسورة هود، الآية: 88.

4 – سورة الأنعام، الآية: 99.

5 – حسين جمعة، التقابل الجمالي في النّص القرآني (دراسة جمالية وفكرية وأسلوبية) منشورات دار النّمير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط01، 2005م، ص: 12.

6 – ينظر: م، ن، ص: 33 وما بعدها.

7 – عبير محمد فايز مسعد، مستويات الخطاب البلاغي في سورة البقرة، بحث ماجستير، قسم اللغة العربية، كلية الآداب للدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس– فلسطين 1421هـ/2001 م، ص: 4.

8 – محمد بركات حمدي، مناهج وآراء في لغة القرآن، ص: 80. نقلا عن: عبير محمد فايز مسعد، المرجع نفسه، ص: 6.

9 – سورة إبراهيم، الآية: 21.

10 – حبيب مونسي، شعرية المشهد في الإبداع الأدبي، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ص: 131.

11 – MAYER Michel, 1993, questions et théorique, langage raison et séduction Ed ; p: 27.

نقلا عن: عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، ص: 206.

12 – صابر الحباشة، محاولات في تحليل الخطاب، ص: 125.

13 – ينظر: عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغيّر مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2006، ص: 202– 203.

* – وخصوصا عند ابن المقفع حين يقول: "البلاغة اسم جامع لمعاني تجري في وجوه كثيرة فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج". ينظر: المجاز والتمثيل، ص: 11. مجلة 'ألف' نقلا عن: عبد السلام عشير عندما نتواصل نغيّر، ص: 203.

14 –مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، بيروت– لبنان، ج02 ط04، 1394هـ/1974م، ص: 14.

15 – حبيب مونسي، شعرية المشهد في الإبداع الأدبي، ص: 13.

16 – ينظر: حسين جمعة، التقابل الجمالي في النص القرآني، ص: 115.

17 – ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، تأويل مشكل القرآن، شرحه ونشره: أحمد صقر، دار التراث، القاهرة مصر، ط02، 1393هـ/1973م، ص: 12.

18 – علي بن عبد العزيز الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل (بحث في الأشكال والاستراتيجيات) دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، ط1، 2010م، ص: 336.

19 – طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2000، ص: 38.

20 – سورة ق، الآية: 27 – 30.

21 – ينظر: عبد الحليم بن عيسى، البيان الحجاجي في إعجاز القرآن الكريم "سورة الأنبياء نموذجا"، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، العدد: 102، السنة السادسة والعشرون، نيسان 2006م، ربيع الثاني، ص: 36.

22 – السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق: عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ط01، 1420هـ/2000 م، ص: 256.

23 – عبير محمد فايز مسعد، مستويات الخطاب البلاغي في سورة البقرة، ص: 03.

24 – م، ن، ص: 3.

25 – ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، قدّمه أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ج1، ص: 195.

26 – عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية دار العودة بيروت، ط3، 1981م، ص: 173.

27 – مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، بيروت– لبنان، ج02 ط04، 1394هـ/1974م، ص: 189.

28 – الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف ط03، ص: 75 – 76.

29 – أحمد حساني، دراسات في اللسانيات التطبيقية حقل تعليمية الترجمة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1996، ص: 68.

30 – عبد الحكيم راضي، نظرية اللغة في النقد العربي –دراسة في خصائص اللغة الأدبية من منظور النقاد العرب–، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط01، 2003م، ص: 193 وما بعدها.

31 – الهادي الجطلاوي، قضايا اللغة في كتب التفسير: المنهج– التأويل– الإعجاز دار محمد علي الحامي للنشر والتوزيع، صفاقس– تونس، ط1، ديسمبر 1998م، ص: 526.

32 – ينظر: محمد المبارك، استقبال النص عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1 1999م، ص: 259.

33 – م، ن، ص: 256.

34 – الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة بيروت، لبنان، ط2، ج03، ص: 233.

35 – عبد الحكيم راضي، نظرية اللغة في النقد العربي، ص: 218.

36 – ينظر: الزركشي، البرهان، ج1، ص: 310.

37 – تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة، ط3 1418هـ/1998م ص: 207.

38 – ينظر: رابح بومعزة، الجملة الوظيفية في القرآن الكريم، صورها، بينتها العميقة توجيهها الدلالي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط01، 1428هـ/2009م، ص: 25.

39 – سورة الزمر، الآية: 64– 66.

40 – ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص: 36.

41 – يحي بن حمزة العلوي، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز تح: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط01، 1423هـ/2002م، ج، ص: 37.

42 – سورة طه، الآية: 67.

43 – عبد الحكيم راضي، نظرية اللغة، ص: 228.

44 – عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تصحيح وتعليق محمد رشيد رضا دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1321هـ/1901م، ص: 83.

45 – الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص: 62.

46 – سورة مريم، الآية: 46.

47 – ينظر: يحي حمزة العلوي، الطراز، ج2، ص: 39. ابن الأثير، المثل السائر ج02، ص: 39.

48 – سورة الأنبياء، الآية: 82.

49 – ينظر: عبد الفتاح لاشين، التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية، دار المريخ للنشر الرياض، المملكة العربية السعودية، 1980، ص: 144.

50 – ينظر: دلخوش جار حسين ذزره بي، الثنائيات المتغايرة في كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهرة الجرجاني، دراسة دلالية، دار دجلة، عمان، الأردن، ط01، 2008م، ص: 123.

51 – سورة المائدة، الآية: 116.

52 – عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 87.

53 – سورة الإسراء، الآية: 40.

54 – دلخوش جار الله حسين دزه بي، الثنائيات المتغايرة، ص: 125.

55 – ينظر: عبد الفتاح لاشين، التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر ص: 146.

56 – سورة الزخرف، الآية: 40.

57 – ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 94.

58 – دلخوش جار الله، الثنائيات المتغايرة، ص: 129.

59 – عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 94.

60 – محمد المبارك، استقبال النص عند العرب، ص: 66.

61 – ابن الأثير، المثل السائر، ج02، ص: 36. يحي بن حمزة العلوي، الطراز ج02، ص: 38.

62 – سورة مريم، الآية: 09.

63 – ينظر: الزمخشري، الكشاف، ج03، ص: 220.

64 – سورة التحريم، الآية: 11.

65 – ابن الأثير، المثل السائر، ج02، ص: 39.

66 – ينظر: يحي بن حمـــزة العلـــوي، الطّراز، ج02، ص: 40. وابن الأثير، المثل السائر ص: 39. والزركشي، البرهان، ج03، ص: 236.

67 – عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 102.

68 – عبد القادر عبد الجليل، الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية، دار صفاء للنشر والتوزيع عمان، ط01، 1422هـــ/2002م، ص: 295.